"النهار"
الاربعاء 8 آذار 2006

أخيراً بات الحداد ممكناً على الباحث الفرنسي الذي أحبّ بيروت
وداع رسمـــي حزيـــن لســـــورا بعد 21 سنـــــة على خطفـــه

كتبت ماري كلير فغالي:

هذه ارض القبور المفتوحة. ناكرة، قاسية. لا هي تحب ابناءها ولا ابناؤها عرفوا منها منذ 30 سنة ونيف غير القهر والدمع والدماء.
كان صعباً في قاعة الشرف في مطار بيروت امس ان نفخر بلبنانيتنا، ونحن نعيد الى فرنسا ابنها ميشال سورا كتل عظام عثر عليها مصادفة في احدى ورش البناء بعد 20 سنة على اختطافه. كان نافراً ايضاً ذاك التناقض بين احترام الفرنسيين لشهيدهم ملفوفاً بعلم بلاده، وبين صراخنا وتقاسمنا ثياب موتانا وتعبير بعضنا بعضا بدمائهم، واخضاع أسرانا لدى الاشقاء والأعداء على السواء الى الصفقات... هذا طبعاً اذا اعترفنا بوجودهم.
وحده ميشال سورا كان مسروراً امس. فقد غادر بعد 21 سنة أمضاها اسيراً ثم قتيلاً تلك المقبرة المفتوحة التي غدرته يوم كان لا حكمة ولا حكم لغير الخاطفين والقتلة الذين بسطوا سلطتهم في تنفيذ "احكام الاعدام بالجواسيس". كان مسروراً رغم الصورة الموضوعة امام نعشه، وتظهره مقطب الحاجبين، وشاباً. هكذا تجمدت صورته منذ 21 ايار 1985 في أذهان زوجته ماري معمرباشي سورا (سورية الاصل)، وابنتيه الكساندرا (24 سنة) وليتيسيا (22 سنة) المولودتين في لبنان.

وروت احدى صديقات العائلة في وداعه امس انه يوم غادر باريس الى بيروت كان يتأبط لعبتين لطفلتيه. كبرت الطفلتان، عاد سورا الى حيث خطف، فاستردتاه رجلاً غريباً في صندوق مقفل. لا هما تعرفانه، ولا وصلت اللعبتان. لقد بات الحداد المستحيل واقعاً في علبة.

أقيمت في قاعة الشرف في مطار بيروت امس مراسم نقل رفات الباحث الفرنسي سورا الى مطار اورلي الفرنسي، يرافقه افراد عائلته وعرابة ابنتيه اندريه بورجيه والرهينة السابق الصحافي جان بول كوفمان في طائرة حكومية. وشارك في مراسم الوداع وزير الثقافة طارق متري ممثلاً رئيس مجلس الوزراء فؤاد السنيورة ووزراء العدل شارل رزق والداخلية بالوكالة احمد فتفت والتربية خالد قباني والنائب سمير فرنجية ورئيس مجلس القضاء الاعلى انطوان خير والمدير العام لقوى الامن الداخلي اللواء أشرف ريفي والسفير الفرنسي برنار ايمييه ومدير عام وزارة العدل القاضي عمر الناطور ومدير المراسم في وزارة الخارجية مصطفى مصطفى، ورئيس الجامعة اليسوعية الاب رينه شاموسي، الى طاقم السفارة وجنود فرنسيين عاملين في اطار القوة الدولية.

عند الاولى الا ربعاً، حطت الطائرة الفرنسية التي تنقل عائلة سورا واصدقاءه وكوفمان في بيروت، واختلوا بالنعش دقائق قبل ان يدخلوا الصالة الرئيسية للمشاركة في المراسم على وقع لحن الموتى.

ارملة سورا خنقت دموعها، هي التي اعلنت في كتابها "غربان حلب" الذي صدر عام 1988 انها تبلغت منذ نهاية عام 1985 موت زوجها ودفنه في مقبرة في ضاحية بيروت الجنوبية. اما ليتيسيا، فغطت عينيها الدامعتين بنظارتين سوداوين، فيما لم يرفع كوفمان نظراته الحزينة عن صورة صديق كان يمكن ان يواجه هو مصيره.

والقى متري كلمة جاء فيها: "بمزيد من مشاعر الحزن القي هذه الكلمة باسم الرئيس السنيورة وفاء لذكرى ميشال سورا، بعد عشرين سنة على اختطافه واختفائه المأسوي في خضم الاحداث اللبنانية المؤسفة التي كانت تعصف بلبنان آنذاك.

وسورا المواطن الفرنسي والمولود في تونس عالم الاجتماع المناصر للعرب بامتياز، كان أحد افضل الباحثين الاوروبيين في العلوم الاجتماعية، اذ كان يغوص في البحث عن مزايا الحضارات والمجتمعات لا سيما منها في العالم العربي، مما جعله يبني علاقات وثيقة وحميمة لا غاية في البحث بل حباً بهذه المنطقة من العالم وبشعوب هذه المنطقة. كان قادراً على دخول حياة الآخرين والتنقل فيها بسلاسة، وكان باحثاً ميدانياً يهوى التجارب، يدير مجموعات أبحاث، ترجم الكثير من القصائد والروايات العربية وقام بالعديد من الدراسات التي لا تزال مراجع أساسية في لبنان وسوريا ومصر مدى سنوات حياته التي انتهت بطريقة مأسوية.

أسس عائلته الصغيرة في بيروت حيث ولدت ابنتاه، وتوسعت شبكة صداقاته لتشمل العديد من اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين، كان يتألم لما كان يتعرض له لبنان في الثمانينات، ولم يشأ ترك بيروت رغم الخطر الذي كان يعرف انه يحوطه. لم يفقد الامل في رؤية السلام والمصالحة يعمان لبنان ولا في ان تسطع الحرية في انحاء العالم العربي. واليوم وفي وقت يعيد فيه اللبنانيون تأكيد وحدتهم واستقلالهم، وفي الوقت الذي يجددون فيه اتفاقهم على العيش المشترك في مجتمع حر وديموقراطي، نتذكر ميشال سورا. فلتكن ذكرى صداقته لبلدنا ذكرى طيبة تذكرنا دائما بمتانة الراوبط والعلاقات بين لبنان وفرنسا".

ايمييه

ثم القى ايمييه كلمة جاء فيها: "نجتمع اليوم لان بعد عشرين سنة من الانتظار والآمال الخائبة ومن العذاب، رفات ميشال سورا يعود اخيرا الى عائلته. نجتمع لنودعه ولنرافقه في الوقت الذي يترك فيه لبنان، لبنان الرسالة، والعشق، لبنان الذي عمل وعاش ميشال سورا من اجله، وتوفى فيه.

في 22 ايار 1985 اختطف سورا على مقربة من هنا، على طريق هذا المطار، وفي 5 آذار 1986 بعد عشرة اشهر من الآلام التي عاشها ذووه وعاشها هو نفسه، اعلن خاطفوه وفاته، وبدأت مرحلة جديدة من انتظار لا يحتمل لعائلته. فالى الخسارة المأسوية كان خوف من العجز عن ايجاد رفات هذا الغالي ومن عدم القدرة على الانحاء امام قبره.

على مر السنوات لم تتوقف فرنسا مع عائلته عن العمل وعن الامل في ايجاد جثة ميشال سورا، وجرت عمليات بحث عدة لا سيما عام 1998 في جنوب بيروت، بطلب من رئيس الجمهورية، وبدعم من رئيس الوزراء اللبناني الاسبق رفيق الحريري، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل.

كان علينا انتظار اعلان السلطة اللبنانية منذ وقت قريب العثور على رفات في المنطقة المذكورة. واود ان اشكر السلطات اللبنانية، وخصوصا رئيس مجلس الوزراء فؤاد السنيورة (...) واللواء اشرف ريفي، اللذين قدما كل المساعدة التي اتاحت التعرف الى رفات سورا واستردادها في افضل الظروف الممكنة.

ولقد ارادت فرنسا ان تنضم الى عائلته لتشاطرها ألمها وتعبر عن تضامنها ودعمها ومن اجل ذلك سيستقبل رئيس الوزراء الفرنسي دومينيك دو فيلبان في باريس جثمان ميشال على الاراضي الفرنسية. ان رئيس الجمهورية الفرنسية والحكومة الفرنسية يحييان شجاعة عائلة سورا، وصبرها ونشاطرها الألم والحزن الذي عاشته كل هذه الفترة.
كل فرنسا تأثرت بموت سورا لانها عاشت هذه المأساة الرهيبة يوما بيوم، ان مأساة سورا ورهائن فرنسيين آخرين، هم مارسيل كارتون، مارسيل فونتان اللذان اختطفا في 22 آذار 1985، جان بول كوفمان الذي اختطف مع ميشال سورا في 22 ايار 1985، فيليب روستو وجان لوي نورماندان وجورج هانسن الذين اختطفوا في 9 آذار 1986 وروجيه اوك الذي اختطف في 13 كانون الثاني 1987. كل الفرنسيين سيذكرون هذا الانتظار الرهيب وستظل صورة العذاب الذي عاشه كل هؤلاء الرجال فداء لمهنتهم وحبا للبنان محفورة في ذاكرة الفرنسيين. وانني اذكر هذه الصور القوية لفك أسر آخر ثلاث رهائن فرنسيين: كوفمان، كارتون وفونتان، ولا تزال صورة الرئيس جاك شيراك، رئيس وزراء فرنسا آنذاك في استقبالهم في مطار فيلاكوبليه في 4 ايار 1988 محفورة في ذاكرتي (...).
احب ميشال سورا لبنان وعاش فيه واراده حرا مستقلا سيدا قويا آمنا يعم فيه السلام. فهم لبنان ولا تزال تحليلاته ومقالاته وابحاثه كنزا ثمينا.

كوفمان

اما كوفمان فقال: "انها المرة الاولى اعود فيها الى لبنان بعد اطلاقي، علماً اني خطفت وميشال على بعد امتار من هذا الموقع. اما زميلي، فيعود رفاته الى فرنسا بعد آلاف ساعات الاسر التي امضيناها معاً، فاذا به يغادر الى الابد وطنه الحقيقي. لم يشعر بالانتماء الى وطن قبل ان يزور هذه الارض. فهنا تزوج وولدت ابنتاه. ولم يستوعب يوماً صدمة هذا الخطف الذي لطالما اعتقد انه مجرد سوء تفاهم (...) كان رد فعل سجانينا امام رؤية انسان يضعف ويتألم ترداد عبارة "بسيطة، بسيطة". وفي نهاية تشرين الثاني 1985، غادرنا ميشال الى زنزانة اخرى، حيث ترك وحيدا وسط الظلام (...). نحن نحتاج اليوم الى معرفة ظروف قتله، فلا تضيع حقيقة وراءها مطالب. لا ندعو الى انتقام، فلم يحصل ان خرج طالب انتقام منتصراً. هذه العودة المنشودة انتظرناها طويلاً. لكننا ايضاً ننتظر معرفة حقيقة ظروف مقتل ميشال".

سورا

وبعد كلمة مؤثرة لابنة سورا الصغرى طالبت فيها بمعرفة حقيقة مقتل والدها الذي لم تعرفه "إلا من شهادات غرباء"، تحدثت زوجته عن معاناتها مدى السنوات الاحدى والعشرين الماضية. وتمنت ان يأتي يوم يشعر فيه اهالي اللبنانيين الـ17 الفاً الذين اختفوا خلال سنوات الحرب، بالسلام نفسه الذي تشعر به "ليكون لهم شاهد ضريح، او ليعرفوا مصير ابنائهم".
وكانت في الختام كلمة للاب شاموسي عدد فيها ميزات الراحل وصلى على نعشه قبل ان ينقل النعش الى الطائرة الفرنسية عائداً الى باريس، حيث كان في استقباله رئيس مجلس الوزراء الفرنسي دومينيك دوفيلبان ورسميون.

قباني

وقد وزع الوزير قباني كلمة جاء فيها: "ميشال سورا هذا الصديق الكبير للبنان واللبنانيين، والمدافع عن حقوق الانسان والمواطن والمظلومين والمدافع الكبير عن حرية التعبير. اذا كان عرف الموت في هذا البلد الذي لطالما احب فان لبنان حكومة وشعبا اتى اليوم لتكريمه وفاء لذكرى الصداقة الكبيرة والروابط المتينة التي جمعت سورا بلبنان على مدى سنوات حياته. اتينا نقول لفرنسا حكومة وشعبا، لاصدقاء سورا وعائلته، لزوجته وابنتيه ان اسم ميشال سورا اضيف الى اسماء شهداء التاريخ المعاصر للبنان، وان دماءه انضمت الى دماء شهيدنا الكبير الرئيس رفيق الحريري والى كل الذين رووا بدمائهم ساحة الحرية في وسط بيروت لتبقى هذه المدينة خالدة، ولتبقى بيروت لنا كما لشعوب العالم كله، رمزا للحب وللحرية والوحدة والسلام والشراكة بين مختلف الشعوب والامم".

عذاب سورا المروع

يذكر ان سورا وهو مؤرخ وعالم اجتماع خطف لدى وصوله الى مطار بيروت في 22 ايار 1985، وقد تبنت العملية "منظمة الجهاد الاسلامي". اما كوفمان فكان من بين الرعايا الاجانب الذين خطفوا وأطلقوا. وفي 10 آذار 1986، اعلنت المنظمة انها نفذت "حكم الاعدام بالباحث المتخصص الجاسوس"، وارفقت ببيانها ثلاث صور يظهر فيها ميتا. وروى كوفمان في كتاب عن خطفه واحتجازه مع غيره من الرهائن ان لا احد يعرف بالضبط متى توفى سورا. فبناء على طلبه نقله الخاطفون من الزنزانة، لانه لم يكن يريد ان "نراه يحتضر امامنا، وكنا نعرف ان ايامه

معدودة".